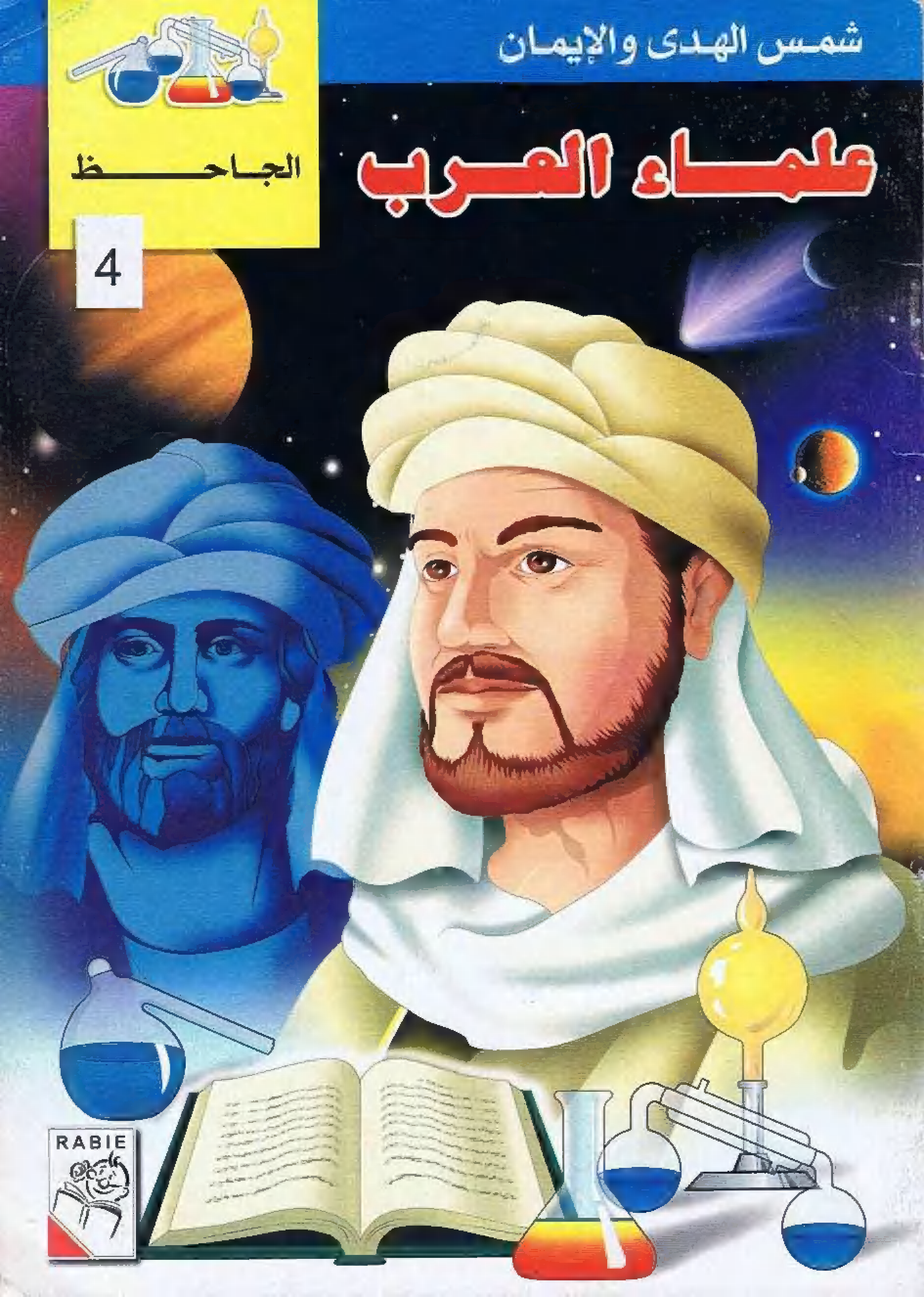


شمس الهدى والإيمان
علماء العرب
الجاحظ
4
RABIE

قصص الهدى والإيمان

علماء العرب

1 - 16 جزءاً

الجاحظ

تأليف
محمد كمال

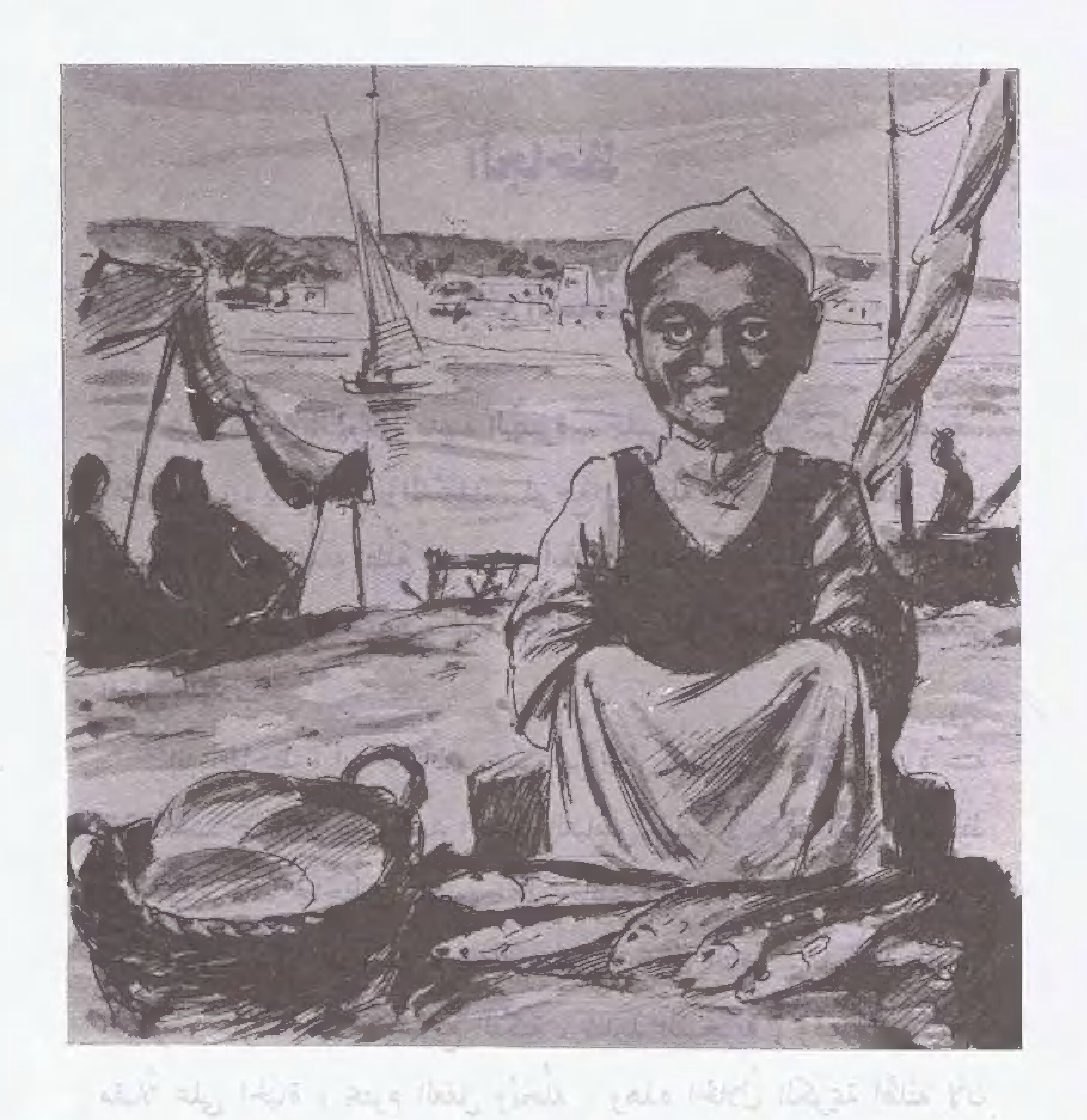


الجاحظ

بائع السمك

على شاطئ النهر في مدينة البصرة ، جلس فتى صغيرٌ متواضعُ الهيئة ، رَثُّ الثياب ، يبيع الخبزَ والسَّمكَ ، ليرجعَ إلى أهله عند العصر بالنقود فَرِحاً مستبشراً ، وفي نفسه تطلُّعٌ إلى ما هو أبعدُ من هذه الحياة وأوسعُ ، وأنّى لهذا الطفل أن يعرفَ أنه سيصبح في مستقبل أيامه رجلَ العلمِ والثقافة ، ومعلِّمَ العقل والأدب .

إنه الجاحظ ، أبو عثمان ، عَمْرو بنُ بَحْر ، الذي ولد في البصرة سنة 163 هـ - 780 م في عهد الخليفة العباسيِّ المنصور . وقد لُقِّب بالجاحظ لأن عينيه كانتا جاحظتين ناتئتين ، إلى جانبِ قبحِ منظره ، وتشوُّهِ خِلْقته ، وسوادِ لونه . إلا أن ذلك لم يجعله انطوائياً يعتزل الناس ، بل كان لطيفَ المعشر ، حلوَ الحديث ، سريعَ النكتة ، شديدَ السخرية ، وفياً لأصدقائه ، مقبلاً على الحياة ، يحترم العقل ويُجلُّه ، وهذه الخِلالُ الكريمة أهّلَتْه لأن يكون فيما بعد ذا مكانة عالية عند الخلفاء والوزراء وذوي الشأن والسلطانِ .



نشأ الجاحظ يتيمَ الأب ، فلم تشأْ أُمُّه أن تحرمَه فضيلةَ العلم ، وهي تلمح فيه أمارات الذكاء وعلائمَ النباهة ، فأدخلته الكُتّابَ ليتعلمَ القراءة والكتابة .

وكان في طريقه يلذُّ له أن يعدوَ وراء الحشرات أو الكلاب أو الفراشات ، يراقبها ويدقق النظر إليها ، ويقلّد أصواتَها ، محاولاً أن يكتشفَ طبائعَها وعاداتِها في حركتها وسكونها ، وطعامها وشرابها ، وغير ذلك مما خصها الله تعالى به ، وأفردها عن غيرها من مخلوقاته .

الخطوات الأولى

بدأ عقل الجاحظ يزداد تفتحاً مع الزمن ، وتتنامى في نفسه الرغبةُ إلى اكتساب المزيد من معارف عصره وعلوم زمانه ، فأخذ يرتاد مجالسَ العلماء في المساجد ، ويتحرّى حلقاتِ أهل الجَدَل والفلسفة ، وينتهز الفرصة بين الحين والحين ، فيخرج إلى ظاهر البصرة حيث تقع سوق (المِرْبَد) وهي سوق أنشئت لتكونَ ملتقى الأدباء والشعراء ، ورجال النحو واللغة ، يتناشدون فيها أعذب القصائد وأروعَ الأشعار ، والناسُ حولهم يسمعون ويحفظون ، ثم يرجعون وقد نهلوا من ينابيع الفصاحة والبيان ، وأغنوا عقولهم بما كان يُروَى في هذه السوق من أيَّام العرب ، وأخبارِ القبائل وسِيَر الشعراء .

ثم أقبل الجاحظُ على شراء الكتب وادّخارها بما كان يتيسر له من مال قليل ، فلم يرَ أصدقاؤه مَنْ أحبَّ الكتبَ والعلومَ أكثرَ منه ، فلا يقع في يده كتابٌ إلا قرأه من أوله إلى آخره ، حتى إنه كان أحياناً يستأجر مكتبةً بما فيها من الكتب ، ويبيت ليلتَهُ مُكباً عليها ، يجيل طرفه فيها ، ويلتقط منها الفوائد

القيِّمة ، حتى إذا أقبل الصباحُ نهض متثاقلاً ، وأعاد مفتاح المكتبة إلى صاحبها .

بشائر المجد

لما بلغ الجاحظُ الثلاثين من عمره ، كانت شهرته قد وصلت إلى مختلفِ مراكز العلم والثقافة ، كبغدادَ والكوفةِ ، إذ أصبح يؤمُّه طلابُ العلم ، يتحلَّقون حوله ويكتبون ما يملي عليهم من معارفه الواسعة وأبحاثه القيمة ، ويتزودون من آرائه الشخصية ونظراته الخاصة التي تدل على حُسْن درايةٍ وعُمْق تفكير . وكانت هذه الأمالي التي كان يمليها ينتسخها النُّسَّاخ ويوزعونها في البلاد ، فأصبح الجاحظ بذلك ميسورَ الحال ، يمتلك مالاً وفيراً وداراً مريحة ، قد خصص فيها غرفة للكتابة والمطالعة .

وفي عام **204** هـ انتقل الجاحظ إلى بغداد مدينة العلم والمعرفة ، حيث تلتقي فيها التياراتُ الثقافية العربية التي عرفتْ كيف تأخذ وتعطي ، مع المحافظة على شخصيتها المتميزة ، وأصالتها العريقة .

وهناك في بغداد قصده الشعراء والأدباء ، وطلاب العلمِ والفلسفة ، يلقي عليهم دروسه ومحاضراته ، ويفتح أمامهم أبوابَ المناقشة والمناظرة ، وينتقل بهم في حدائق العلوم والمعارف ، فيجدون في دروسه الفائدة العقلية والمتعة النفسية ، إذ عُرِف عنه أن كان كثير الاستطراد ، لا يقف عند موضوع واحد ، وغرضُه من ذلك أن يظلّ الطالبُ مشدوداً إلى أستاذِهِ ،

ملتزماً بدروسه ، لا ينتابه الملل والضجر ، وذلك هو المنهج التربوي الرشيد .

في بلاط المأمون

كانت أخبارُ الجاحظ تبلغ مسامعَ المأمون ، ذلك الخليفةِ العالِمِ الذي أسس في بغداد نهضةً علمية حضارية رائعة ، فكان يستقدم إلى بغدادَ كلَّ من يسمع به من فضلاء العلم والأدب ، ورجالِ اللغة وأهل الترجمة ، على اختلاف مللهم وداناتهم ، فيُغدِق عليهم الهِبات ، ويشجّعهم على الإنتاج ، لأنه يعلم أن الدولة لا تقوم على الأجهزة السياسية والعسكرية فحسب ، وإنما هي بحاجة إلى أجهزة ثقافية مبدعة ، تنهض بالمجتمع ، وتبني شخصيةَ الإنسان ، وتزيح عنه ظلامَ الجهالة وسُحُبَ الغفلة .

توثّقتِ العلاقةُ بين المأمونِ والجاحظ بعد أن قرأ له كتاب (الإمامة) فأُعجب به ، فسارع المأمون إلى تكليفِ الجاحظ بمنصب رياسة ديوان الرسائل ، وهو منصب لا يحظى به إلا أصحابُ المواهب النادرة في الأدب ، ومَنْ يحيطون بمختلِفِ الثقافات ، ويحسنون التدبير في معالجة الأمور السياسية .

غيرَ أن الجاحظ لم يلبث في هذا المنصب أكثر من ثلاثة أيام ، فطلبَ إلى الخليفة أن يُعفيَه منه ، لأن الوظيفةَ الحكوميةَ قيدٌ شديدٌ لا تُطيقهُ نفسُ



الجاحظ المتحررةُ التي تأبى أن تلتزمَ بساعاتِ عملٍ محدَّدة ، وبنظامٍ رسميٍّ مفروض .

في بلاط المعتصم

في عام 218 هـ تولى الخلافةَ المعتصمُ أخو المأمون ، وكان بين وزير المعتصم محمد بن عبد الملك ابن الزيَّات وبين الجاحظ علاقةٌ متينة وصداقةٌ حميمة ، فقدَّمه هذا الوزير إلى الخليفة ، وجعل له عنده مركزاً مرموقاً ، فكان الجاحظ يلتقي في بلاط الخلافة بكبار رجال الدولة وأفاضلِ العلماء ، يأنسون بهِ ، ويعجبون بطيب خصاله ولطف معشره وطرافة حديثه .

والمعروف عن المعتصمِ أنه استعان بالعناصر التركية ، ووثق بهم كل الثقة ، فجعل منهم قُوَّاداً وحَرَساً يحيطون به ويدافعون عنه ، وإن أدى ذلك إلى ارتفاعِ أصواتِ الشعب ناقمين مستنكرين . ولكن الجاحظ مع ذلك ألَّفَ كتاباً في مناقب الترك وعامة جند الخلافة .

ثم مات المعتصمُ وخَلَفه ابنُه الواثِقُ ، فظل ابن الزيَّات في منصب الوِزارة ، وظل الجاحظ من المقرَّبين إلى الخليفةِ والوزير ، وهو يزداد مع الأيامِ ثراء ومجداً ، حتى سأله أحد أصدقائه :

– كيف حالك يا أبا عثمان ؟ فأجابه الجاحظ :

– حالي أن الوزير يتكلَّم برأيي وينفِّذ أمري ، ويواتر الخليفة الصِّلاتِ إليَّ ، وآكلُ من لحم الطير أسمَنَها ، وألبَسُ من الثياب أفخرَها .

ولكن ماذا تخبئ الأيام للجاحظ ؟ وهل دام له هذا النعيم الذي هو فيه ؟ .

محنة الجاحظ

بعد انتقال الواثق إلى رحمة ربه، تولى المتوكّلُ مقاليدَ الخلافةِ، وسرعان ما أبعدَ ابنَ الزيّات عن الوِزارة، وأمرَ بإدْخاله إلى تنُّورٍ فيه مساميرُ محمَّاةٌ، فعُذِّبَ به حتّى ماتَ، ونَصَّب مكانه وزيراً جديداً هو أحمدُ بنُ أبي دُؤَاد.

فأحسَّ الجاحظُ، وقد قُتِل صديقُه، بالخطرِ المنتظر، فولى هارباً في جنح الليل إلى البصرة، فقيل له: لِمَ هربتَ؟ فقال متندِّراً:

- خِفتُ أن أكون ثانيَ اثنين إذْ هُما في التَّنُّور.

ولكنَّ ابنَ أبي دؤاد الوزيرَ الجديدَ أمرَ بإحضار الجاحظ مقيَّدَ الرِّجْلين، مغلولَ العُنُق بسلسلةٍ من الحديد.

ولمّا وصلَ الجاحظ إلى بغداد بثيابه الممزَّقة وحالته الزريَّة، نظر إليه ابن أبي دؤاد غاضباً وقال له:

- والله ما عَلمتُكَ إلا مُتناسياً للنعمة، كفوراً للصنيعة، معدِناً للمساوئ.. فرفع الجاحظُ رأسه، وجمع ما لديه من ذكاء وبلاغة وقال:

- خفِّضْ عليكَ أيّدك اللهُ، فوالله لأن يكونَ لك الأمرُ عليَّ خيرٌ من أن يكونَ لي عليك، ولأنْ أُسيءَ وتحسنَ أحسنُ في الأحدوثةِ عنك من أن أُحسنَ فتسيءَ، ولأن تعفوَ عنّي في حال قُدْرتِك أجملُ بك من الانتقام منّي.

فما كان من الوزير وقد أعجبه هذا الجوابُ إلا أن قال له: قبَّحكَ اللهُ، فوالله ما علمتُكَ إلا كثيرَ تزويق الكلام. ثم عفا عنه وأدناه من مجلسه.



كتاب الحيوان

يمكن أن يُعَدَّ كتابُ (الحيوان) من أوسعِ كتب الجاحظ العلمية ، وأعظمِها نفعاً وفائدة ، فقد استعرضَ فيه أنواعَ الحيوانات في البر والبحر

والجو ، ووقف عندَ طبائعها الجسمية والنفسية ، معتمداً في ذلك كلّه على التجربةِ والمعاينة والخبرة الخاصة ، شاقاً لنفسه طريقاً في البحث العلمي يقوم على الشك الذي يؤدي إلى اليقين ، فيقول :

– اعرفْ مواضعَ الشكِّ وحالاتِها الموجبةَ لها ، لتعرفَ بها مواضعَ اليقين والحالاتِ الموجبةَ لها .

ثم إنه يردُّ على كثير من الأساطير والخرافات التي تفسِّر سلوكَ الحيواناتِ وتصرفاتها ، ويرى أن هذه الخرافاتِ إذا مازجتِ العلمَ أفسدَتْه وأضرَّتْ به ، فلا بُدَّ من الاعتمادِ على العقل ومقاييسه ، لأن الحواس كثيراً ما تكونُ خادعةً مضلِّلةً .

غير أن الكِتابَ لا يختصُّ بالحيوان فقط ، كما نرى في المؤلفاتِ الحديثة ، وإنما هو موسوعة شاملة تتناثر في طيّاتها الأخبارُ التاريخية والأشعارُ المستملَحَة ، والفوائدُ اللغوية .

ولمّا استتمّت فصولُه أهداه إلى الوزير محمد بن عبد الملك ابن الزيات .

كتاب البيان والتبيين

في كتاب (البيان والتبيين) تتجلى ثقافةُ الجاحظ الواسعةُ ، ومعرفتُه بأدب الأمم والشعوب ، واعتزازُه بالتراث العربي ، فتراه يعرض على القارئ أقوال الفلاسفة اليونانِ والهنودِ ، وأخبارَ العرب ، ونماذجَ من خطبِهم وروائعِ أشعارهم . ويقف عند عيوب اللسان ، كاللُّكْنة والتمتمة . ويبيِّن رأيه في

الفصاحة والبلاغة ، مستشهداً بآيات من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وكلام الحكماء والفصحاء والشعراء ، فهو حديقة فوَّاحة ، يتنقل القارئ في أرجائها ، فتمتعِه بما اختاره الجاحظ بذوقه الرفيع من بدائع الحِكمِ ، وروائع الأخبار والأشعار . يقول الجاحظ :

- (وأحسنُ الكلام ما كان قليلُه يُغنيكَ عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، وكان الله عزَّ وجلَّ قد ألبسه من الجلالة ، وغشَّاهُ من نور الحكمة على حسب نيَّة صاحبه وتقوى قائلهِ ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظُ بليغاً ، وكان صحيحَ الطَّبعِ بعيداً عن الاستكراه ، منَزَّهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلّف ، صنعَ في القلب صنيعَ الغيْثِ في التربة الكريمة) .

وقد أهدى الجاحظ هذا الكتابَ الثمينَ إلى الوزير أحمدَ بنِ أبي دؤاد .

كتاب البخلاء

ألّف الجاحظ كتابَ (البخلاء) في آخرِ أيامه ، فجمعَ فيه ما وصلَ إليه من نوادرِ البخلاء واحتجاجِ الأشِحَّاء ، وما يجوزُ من ذلك في باب الهزل ، وما يجوز في باب الجِد .

فهؤلاء البخلاء دفعتهم هذه الخَصْلة الذميمةُ إلى جمع المال وتثميره ، والاقتصاد في نفقته ولو على أنفسهم . كما يصفُ لنا فيه بعض الشَّرِهين إلى الطعام وصفاً حسيّاً تارة ونفسياً تارة أخرى ، حتى إنه لينتزع الضِّحكةَ من

فم القارئ انتزاعاً ، وذلك حين يضعه أمامَ صورٍ واقعيةٍ حركيةٍ بارعة تدفع إلى التهكم والسخرية ، فهذا عليٌّ الأُسواريُّ :

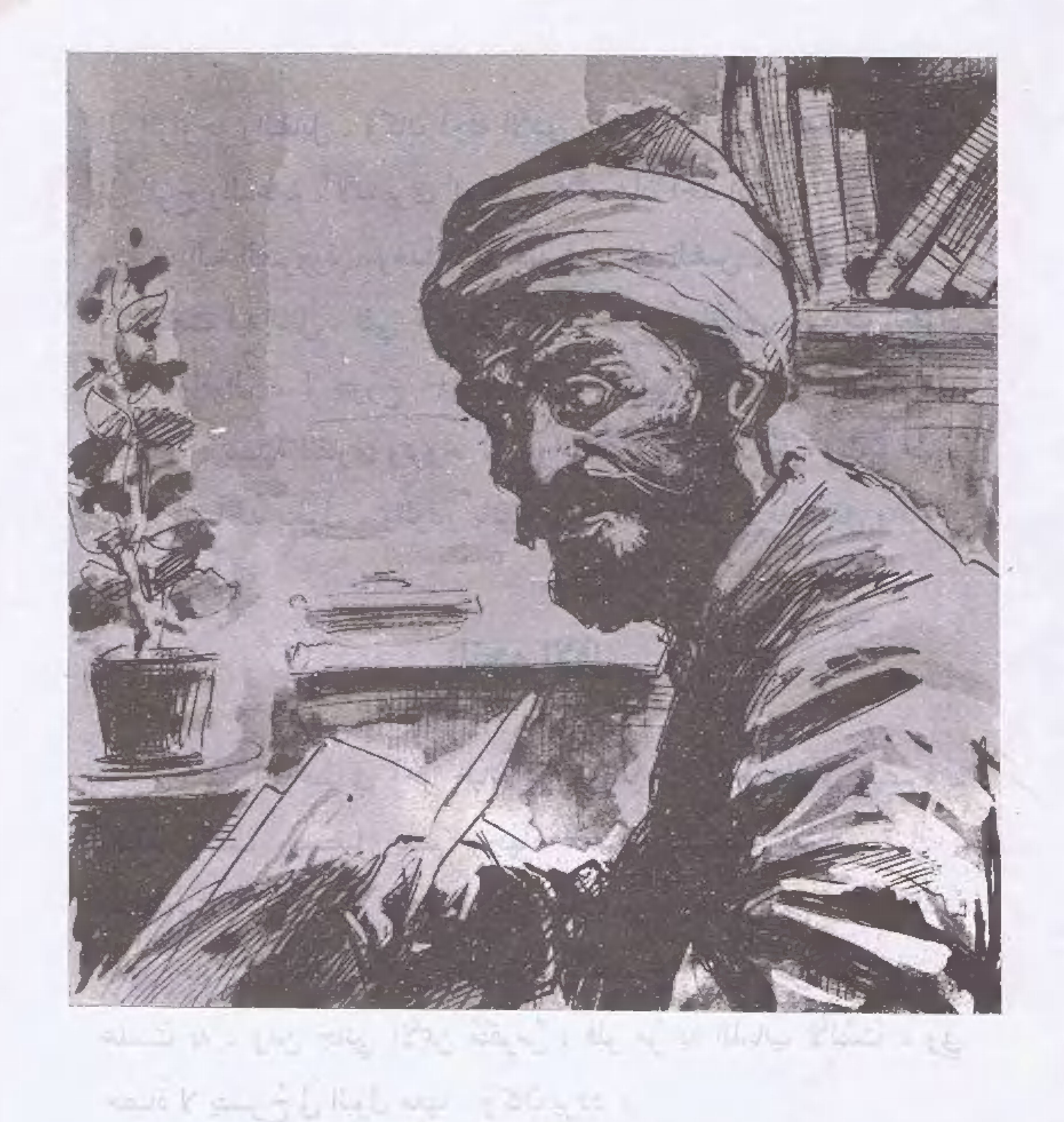
- (كان إذا أكلَ ذهب عقلُه ، وجحظت عينُه .. وتربَّد وجهُه ، ولم يسمعْ ولم يبصرْ .. ولم يفصِل تمرةً من تمرة ، ولا رمى بنواة قطُّ ، ولا نزع قُمْعاً ، ولا نفى قِشْراً ، ولا فتَّشه مخافة السوسِ والدود) .

الحنين إلى الأوطان

للجاحظِ كتبٌ ورسائلُ تكادُ لا تُحصى عدداً ، ولا يحاطُ بها تنوعاً ، ومن بين هذه الرسائلِ الجليلةِ رسالةٌ في (الحنين إلى الأوطان) أوردَ فيها الجاحظ من الأخبار والأشعار ما يدل على تمكُّن هذه العاطفة في نفس الإنسان وتحكُّمها في ذاته ، فقد قال الله عز وجل حين ذكر الديار يخبر عن مواقعِها من قلوبِ عبادِهِ : ﴿ ولو أنّا كتَبْنا عليهم أن اقتلوا أنفسَكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليلٌ منهم ﴾ . فسوَّى بين قَتْلِ أنفسهم وبين الخروج من ديارهم .

وقد قال أحدُ الشعراء :

لَقُربُ الدارِ في الإقتارِ خيرٌ ... من العيشِ الموسَّع في اغترابِ



فكاهة الجاحظ

كان الجاحظ صاحبَ أسلوب رفيع محبَّب ، يمتاز باليسر والسهولةِ والبعد عن التكلف والتعقيد ، فلا يستعمل من الألفاظ إلا أرقَّها وأعذبَها وأكثرَها تآلفاً وانْسجاماً ، ولا منَ العباراتِ إلا أوضَحَها وأسْلَسَها وأقربَها

إلى المزاوجة والتقابل ، وكان ذوقُه الأدبي ينفرُ من التزمُّت والتشدُّد ، ويميل إلى المرح والدُّعابة ، لأنه يرى أن الهزل شأنُه شأنُ الجدِّ إذا وقع في موضعه ، ودعت إليه الضرورة ، ولهذا كان أدبُه قريباً إلى النفس ، لا يُتعِب القارئَ ولا يبتعث فيه المللَ . ففي كتبِه من أخبار الحمقى والمغفلين وضعافِ العقول نوادرُ وأقوالٌ ، لم يتورَّعِ الجاحظ عن تسجيلها في كتبه ، وإيرادها في مصنفاته ، تسليةً للقارئ وترويحاً له ، وإمعاناً في أن يكون أدبُه واقعياً حيّاً ، يمتزجُ فيه الجِدُّ بالهزل ، والوقارُ بالمرح ، فبذلك تتحقق مُتعةُ العقلِ والروحِ في آن واحد .

النجم الآفل

أصيب الجاحظ في آخر حياته بمرض الفالج ، فلزم بيتَه في البصرة ، يطالع الكتبَ ويستقبلُ بعضَ وجهاء العلمِ والسياسة . فكان يقول : اصطلحتْ على جسدي الأضدادُ ، إن أكلتُ بارداً أخذَ برجلي ، وإن أكلتُ حاراً أخذَ برأسي . وأنا من جانبي الأيسر مفلوجٌ ، فلو قُرِضَ بالمقاريض ما علمتُ به ، ومن جانبي الأيمن مُنْقَرِسٌ ، فلو مرَّ به الذباب لأَلِمْتُ ، وبي حصاةٌ لا ينسرحُ لِيَ البول معها . وكان يردد :

أترجو أن تكونَ وأنتَ شيخٌ كما قد كنتَ أيّامَ الشبابِ
لقد كذَبَتْكَ نفسُكَ ، ليس ثوبٌ دَرِيسٌ كالجديدِ من الثيابِ

إلى أن وافاه الأجل في سنة 255 هـ - 868 م بعد أن تركَ في رحابِ الأدب دوياً لا يزال يتردد صداهُ إلى الآن .

علماء العرب

سلسلة قصصية تروي الجانب الهام من حياة علماء العرب الذين كانوا وما زالوا مجال العزة والفخار.



تأليف: محمد كمال
الغلاف: هيثم فرحات





Published by Rabie Publishing House Aleppo . Syria
P.O.Box : [illegible] Tel : +963 21 2640151 Fax : 2640153
E-mail : rabie@rabie-pub.com WWW.rabie-pub.com

